نحو منهج لتدبّر القرآن الكريم

طه جابر العلوانى

٢٠٠٥

الحمد لله، نستغفره ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ونصلي ونسلم على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى من تبعه واهتدى بهديه إلى يوم الدين. ثم أما بعد ..

يعد موضوع تدبُّر القرآن الكريم، من أهم الموضوعات التي يحتاج المسلم إلى معرفتها، واستجلاء معانيها، ومعرفة وإدراك كيفيّتها، وخطواتها وما يوصّل إلى القدرة والإتقان في حسن ممارستها إن شاء الله تعالى. ذلك أنّ القرآن المجيد كتاب كونيٌّ، ليس هناك على وجه الأرض اليوم كتاب كونيٌّ غيره، ومشكلات العالم اليوم، لا الأمة الإسلامية وحدها، بل العالم كلّه، صارت مشكلات "**كونيةً**" وأزمات عالميّة، والمشكلات الكونيّة والأزمات العالميّة تحتاج إلى مصدر "**كونيّ**"، قادر على معالجة هذه الأزمات، والتصدي لها ومساعدة إنسان اليوم على تجاوزها.

من هنا تكتسب قضية "**منهجيَّة تدبُّر القرآن المجيد**" أهميَّتها البالغة في أيامنا هذه، فنحن المسلمين نعاني من أزمات عديدة، بعضها انعكس علينا من أزمات عالميَّة، وبعضها وُلد ونشأ في بيئاتنا، فنحن نعيش أزمات خاصة بنا، بوصفنا مسلمين، وبوصفنا عربًا أو شرق أوسطيّين أو بأيّ وصف آخر يمكن أن نوصف به. كما أننا نعيش في عالم تجتاحه أزمات عالمية أخرى كثيرة تنعكس علينا، وتؤثر فينا. وإن كان البعض يتوهم أنها "حوالينا لا علينا". حينما يحاول المفكرون الأمريكان، بصفة خاصة، أن يرصدوا مشكلات عالم اليوم من وجهة نظرهم، أو مشكلات أمريكا بصفة خاصة، يذكرون أوّل ما يذكرون، تفكُّك الأسرة، وانهيارها، وسقوط قيمها، وعجز الدين عن إعادة بناء ما تفكك، وطبعًا حين يتكلم المفكر الأمريكي اليوم عن الدين، فإنما يعني الدين المسيحي، أو اللاهوت المسيحيّ بشقيه البروتستانيّ والكاثوليكيّ، وأيّ كنيسة أخرى تنتمي إلى ذلك الدين.

وبطبيعة الحال حين يتكلم عن "عجز الدين" عن إعادة تركيب الأسرة فكلمة "الدين" هنا عامَّة شاملة تنعكس عنده على الإسلام وعلى اليهودية من باب أولى بعد أن

انعكست على النصرانيَّة بكل كنائسها، والأديان الوضعية، إضافة إلى ما شاع أو تعارف الناس على تسميته في تلك البيئات بالأديان الإنسانيّة.

المشكلة الثانية، التي يتعرضون لها، هي مشكلة "البيئة وتلّوثها"، وتحولها لا إلى محضن للإنسان ومنزل له، يحتمي به ويعمره، ويمارس حياته السليمة فيه، بل أصبحت تهديدًا له في صحته، وتهديدًا له في حياته– بما حدث لها من عمليات التلوث في الجو والبر والبحر– : التهديد بالمجاعة بعد إهلاك الحرث والنسل، والنقص في المياه الصالحة للشرب، وزيادة حرارة الأرض، وثقب الأوزون والتصحر، وسواها من مشكلات.

فإذا جاؤا إلى المشكلة الثالثة أو الأزمة الثالثة، فكثيرًا ما يذكرون الحروب، والصراعات، وعجز البشرية عن احتواء هذه الصراعات بأنواعها، وإيقاف هذه الحروب، حتى إن الجامعات الأمريكية مؤخرًا بدأت تعتني بتأسيس أقسام علمية تختص بدراسة تقديم الحلول للمنازعات أو "Conflict Resolutions" لإحساسهم بضغط هذه المشكلة لا على مستوى الدول والحكومات وحدها، بل على مستوى الشعوب ومستوى الأديان ومستوى الأسرة والجيران وسائر المستويات الأخرى.

هناك أيضًا مشكلة الانحراف في تسخير العلم والمعرفة فبدلًا من تسخير العلم والمعرفة لإسعاد الإنسان ومعالجة مشكلاته صار العلم والمعرفة يسخّران لتصنيع وسائل الدمار الشامل وغيرها. وهكذا يبدو العالم اليوم عالمًا يعاني تهديدًا في غاية الخطورة حيث إن نفايات مصانع الدمار الشامل من الأسلحة النووية وغيرها، لم يعد لها في الأرض مكان يمكن أن تدفن فيه، لا في البر ولا في البحر. وأصبحت الدول الصناعية الكبرى، كثيرًا ما تحاول التسلّل كما يتسلّل اللصوص إلى بعض الصحارى أو بعض البلدان التي ترى أن فيها مساحات يمكن أن تدفن فيها هذه النفايات أو في مياه المحيطات والبحار القريبة منها، ليفعلوا ذلك فيقع الضرر على الأبرياء وفي أراضيهم أو مياههم ؛ وينجو منه صناع الدمار ولو إلى حين. والنماذج على ذلك كثيرة، فهناك مصانع لهذا النوع من أسلحة الدمار أغلقت، ولكن لا يعرف من أسسوها، سواء في أمريكا أو في أوربا، كيف يتخلصون منها أو من آثار وجودها على سائر الموجودات

من الحياة والأحياء ؛ لإن التخلص منها يعني تدمير البيئة أكثر مما هي مدمّرة، ولإن ذلك يعني تعميم التلوث، وربما إنهاء الحياة في أقطار كثيرة أو أماكن كثيرة من العالم، ولذلك فهناك مصانع للكيماويات وغيرها، أغلقت لعدم صلاحيتها ولكن لا تعرف أمريكا ولا روسيا ولا المجموعة الأوربيّة كيف يتخلصون منها ومن مخلفاتها فتوضع عليها الحراسات المشددة، وتنفق عليها الملايين من أجل إبقائها مغلقة هكذا فذلك أهون الأضرار، ولكنها في كل الأحوال سيف مسلط على الإنسان يمكن أن يقتله ويقتل الحياة في أيَّة لحظة.

وهناك المرض، والجهل، والفقر، وارتفاع معدلات الجريمة نتيجة تصحّر الحياة، وفقدان الروح والجانب النفسي والجانب الروحي لدى الإنسان وطغيان شهواته عليه، سواء أكان على مستوى الدول والحكومات التي تغزو غيرها لاستلاب مواردها أو على مستوى الأفراد، فالشح والجشع والطمع والغرور والاستقواء على الضعفاء كل هذه النزعات أصبحت مهدَّدة لا للسلام والأمن العالميَّن بل أصبحت خطرًا على الحياة والأحياء كلّها.

ما الحل ؟ وما هو سبيل الخلاص ؟ ربنا تبارك وتعالى يقول : (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) (الحديد : ١٦)، وهذا مفتاح مهم، فالإنسان أحيانًا يطول عليه الأمد أو المسافة الزمنية بينه وبين مصادر هدايته، فيصاب قلبه بالقسوة، وتصاب نفسه بالتجمد، وحياته بالتصحُّر، وفي هذه الحالة يصبح هذا الإنسان نفسه خطرًا على ذاته، وخطرًا على الآخرين، وهذا ما يحدث الإن. أمريكا تحاول الإن- بحسب معرفتي بالعناصر الأكاديمية التي تعمل للوصول إلى حلول- العمل على إنماء الجانب الروحي فتحوّل إلى نوع من التعصّب الدينيّ، يهدّد وحدة أمريكا، لا أقول تعصّب من يسمَّون بالمحافظين الجدد وحدهم، ولكن هناك تعصّب الكاثوليك، الأرثوذوكس، من اليهود، والنصارى وأصحاب الأديان الوضعية، وبعض المسلمين كذلك حيث يشترك هؤلاء كلهم في هذا التوجّه الذي يحمل سائر بذور الصراع.

مع أن الدواعي في البداية كانت سليمة، والنوايا كانت سليمة كذلك وهي محاولة تذكير البشر بالجانب النفسي والجانب الروحي ومحاولة القيام بعملية إنماء الحياة الروحية من أجل مقاومة تلك النزعات المدمرة، ولكن ... ليس كل اقتراح أو مشروع إصلاحي يمكن أن يؤتي ثماره المطلوبة منه دون أعراض جانبيَّة، ولذلك جاء هذا الاتجاه بتعصّب أيديولوجي، وتعصّب دينيّ يهدّد –الآن– كما أشرت وحدة كثير من هذه البلاد.

وأحدث ذلك التوجه الذي كان في بدايته إيجابيًّا توترًا داخليًا ومخاوف خارجيَّة ؛ بعض المفكرين الغربيّين صار يسوغه، بل يراه ضروريًا لإعادة اللحمة بين عناصر الأمة الأمريكيّة، التي تعتبر الأمة الوحيدة التي فيها نماذج من العالم كله، أديانه وقومياته ومذاهبه وطوائفه وألوانه وأعراقه ... إلى غير ذلك، وأن هذا التوتر قد يكون في صالحه لإعادة بناء وحدته ولحمته، وبعضهم يرى فيه خطرًا داهمًا يمكن أن يهدد كل شيء، خاصة وأمريكا الآن تمثل قطبًا منفردًا في مقدرات العالم. والأمر قريب من هذا بالنسبة للمجموعة الأوربيّة.

<u>أزمة البيئة:</u>

في موضوع البيئة، عُقد المؤتمر الشهير، أو ما عرف بقمة الأرض في البرازيل منذ سنوات، وشارك فيه ستون ومائة من ملوك ورؤساء العالم، واتخذوا مقررات، وأصدروا توصيات، ولكن ما الذي حدث ؟ لم يحدث شيء، وفيما يتعلق بأسلحة الدمار الشامل والنفايات النوويّة والكيماويَّة والحروب، ولا في ما يتعلق بالصراعات، ولا في ما يتعلق بمقاومة الفقر، والجهل، والمرض. الأمم المتحدة ومؤسساتها المختلفة، تعمل ليل نهار على معالجة شيء من ذلك دون كبير جدوى، وحينما نرصد حجم المأساة وكميّة الأزمات ثم الوسائل التي يحاولون بها معالجة تلك الأزمات فإننا لا نجد أنهم قد فعلوا إلا القليل، لماذا ؟ الجواب مرة أخرى، إنّ إصلاح هذه الأحوال، ومعالجة هذه الأزمات، يحتاج إلى كتاب كونيٍّ قادر على إعادة تركيب ما تفكك، فالأسرة التي تفككت لكي

تصبح ستة أنواع، ولكي يتحول مفهوم الأسرة، من المفهوم الزوجي الذي جاءت به الأديان كلها، إذا بهم يحولونه إلى الناحية العددية فهناك زوج وهناك فرد، فكل اثنين يجتمعان فهما زوج، وبالتالي فإذا اجتمع شاذان وقررّا العيش المشترك فقد اعترفت به– كما نعلم– ولايتان أمريكيتان حتى الآن والبقية تأتي من الولايات المتحدة أو من غيرها، لإن هذا يمكن أن يُعدّ زواجًا مقبولاً، وتوحّد الضريبة، ويُعامل الاثنان أمام القانون كما يعامل الزوجان فيما يسمونه اليوم "بالأسرة التقليدية" المؤلفة من زوج وزوجة، وكذلك بالنسبة لسحاقيَّتين أو شاذَّتين أو زانية تتبنَّى لقيطًا أو زانيًا أو لوطيًّا يتبنى لقيطًا أو غير ذلك.

كلّ هذا يجد من يسمونه "أسرة"؟ لإنهم قد حطموا مفهوم الأسرة وصارت الأسرة عندهم زوج عددي لا زوجيَّة إنسانيّة، تخضع لنظام الزوجيَّة الكونيّ الذي هو جزء من سنن الكون، ولذلك ينادي رئيس الولايات المتحدة الآن– الرئيس بوش– وربما كان هذا الطرح منه من أهم أسباب انتصاره في معركة الرئاسة الثانية، بإعادة تعريف مفهوم الأسرة، ليحصر بما يسمونه بمفهوم الأسرة التقليدية. ولم يحقق شيئًا يذكر في هذا المجال.

فالكتاب الكونيّ الوحيد هو القرآن الكريم، والقرآن الكريم لم يكتشفه أهله بعد، فالمسلمون والعرب منهم، وهم يعيشون أزماتهم هذه التي– كما قلنا– تتألف من أزمات خاصة بهم من ناحية، وأزمات أخرى تنعكس عليهم من خلال الأزمات العالمية، لم يكتشفوا ما في هذا القرآن المجيد من قدرات تركيبية عالية قادرة على إعادة تركيب ما تفكك، والجهود التي بُذلت، منذ القرن الثاني لهجرة النبي–صلى الله عليه وآله وسلم– لاستجلاء ما في معاني القرآن في التفسير والتأويل وفي ما سواهما، لم تستطع لحد الآن أن تقدم لنا من القرآن كتاب استخلاف ودليل عمران ومنطلقًا ومصدرًا لمعالجة أزمات البشريَّة ومشكلاتها، لإن النظر إلى القرآن كاد ينحصر في الجانب التعبُّديّ، وجانب العبرة والعظة واستخلاص الدروس من قصص القرآن وأمثاله، وفي القرآن الكريم كل ذلك. ولكن في القرآن المكنون أمورًا أخرى لابد من استجلائها، ومنها كَونيَّته وقدرته

البالغة على معالجة الأزمات الكبرى وإعادة تركيب ما فككه الإنسان بجهله، أو بعدُه عن مصادر هدايته، وإعادة بنائه بالشكل السليم. والقرآن الكريم حينما نؤكد قدرته على هذا التأليف والتركيب، لا يمكن أن نتبيَّن هذه القدرة بدون أن نتبيَّن "حقيقة القرآن بتدبُّره" والمناهج التي لابد لنا من استعمالها واستخدامها لاستجلاء معانيه بأفضل الأشكال وأحسنها، فالقرآن المجيد، يخبرنا رسول الله-ﷺ-فيما أخرجه الترمذي، ورواه الإمام أبوطالب في أماليه، وابن الأثير في جامع الأصول، وغيرهم من أصحاب الحديث يخبرنا أنّ فتنًا ستقوم، والفتنة تقابل الأزمة وقد تزيد عليها، وأن من بين هذه الفتن، فتن انشغال الناس بالأحاديث، والأحاديث سواء أكانت بمفهومها الاصطلاحي أو بالمفهوم الآخر ما نسميه اليوم بالآراء أو التعليقات أو التعقيبات أو التحليلات أو سواها، مما يفتتن به من الناس أمور أخرى عن القرآن الكريم، حتى جاء الحارث بن عبد الله الهمداني صاحب الإمام علي-ﷺ-ليخبره بما سقط الناس فيه يقول الحارث صاحب علي : "مررت بالمسجد-أي مسجد الكوفة-وقد رأيت الناس يخوضون بالأحاديث، فدخلت على عليّ-ﷺ-وأخبرته، فقال : أَوَقد فعلوها ؟ هذا استفهام استنكاري، يستنكر الإمام علي أن ينصرف الناس إلى الأحاديث المختلفة عن القرآن الكريم، قال : أَوَقد فعلوها، قلت : نعم، قال : أما إني قد سمعت رسول الله-ﷺ-يقول: "ألا إنّه ستكون فتنة"، قلت : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : "كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قسمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضلّه الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ)، من قال به صدق ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم"، انتهى هذا الحديث الجليل، الذي جاء من طرق عديدة، منها هذا الطريق وطريق آخر من حديث معاذ عن رسول الله-ﷺ-وجاء من طريق ثالثة من حديث عمر بن الخطاب، وتداوله العلماء حتى

أخذ موضع الاشتهار، ولم يختلف أحد على دقة وصحة معانيه، فتلقَّوها بالقبول، وذلك بعض ما يمكن أن يوصف به كتاب الله تبارك وتعالى ؛ بل هو غيض من فيض أوصافه.

من هنا نحتاج إلى أن نرجع إلى أسلافنا، لننظر كيف مارسوا تدبّر هذا الكتاب الكريم، وكيف نستطيع أن نبني على ذلك قواعد للتدبّر الأمثل مستعينين بالمحددات المنهجية والمؤشرات الموجودة في هذا الكتاب ؟!!

نحن نعلم أنّ الجيل الذي عاصر رسول الله-ﷺ-وهو جيل الصحابة أو جيل التلقّي، الذي تلقّى القرآن الكريم من لدن رسول الله- ﷺ- كما تلقّاه رسول الله- ﷺ- من لدن الحكيم الخبير.

هؤلاء الذين تلقوا القرآن عنه عليه الصلاة والسلام، تعلموا كيف يتدبرون القرآن. لقد كان نزوله مفرّقًا ومنجمًا، وارتباطه بقضايا عصرهم ووسطهم من العوامل المساعدة على حس التدبّر وكذلك مشاهدتهم لرسول الله- ﷺ- أثناء نزوله عليه وتلك حكمة بالغة أرادها الله-تبارك وتعالى-لبناء الجماعة الأولى بناءًا نموذجيًا ولذلك نجد علمًا من علوم القرآن سمي : بعلم "**أسباب النزول**" أو "**مناسبات النزول**"، فكثيرًا ما تفرز البيئة، بيئة الصحابة سؤالاً أو إشكالاً أو أزمة ويهرع الصحابة إلى رسول الله-ﷺ-سائلين عن الحل، باحثين عن الجواب، ورسول الله ﷺ إمّا أن تكون لديه من آيات الكتاب جملة يمكن أن يحيل عليها ويوضح لهم أنّ ما يسألون عنه سوف يجدون جوابه في هذه الآيات، وإمّا أن يخبرهم بأنّه سوف ينتظر الوحي من الله تبارك وتعالى، وتنزل الآيات لتعالج تلك المشكلة، ولتعالج تلك الأزمة، حدث ذلك مثلاً في قضية الإفك، حينما اتُهمت أمّ المؤمنين عائشة ﵂ وأرضاها، من أولئك المنافقين بتلك التهمة والفرية النكراء وانتظر رسول الله ﷺ وعائشة وأصحابه شهرًا كاملاً وهم في غاية الضيق والحرج والحيرة، تخيلوا أن توجّه التهمة إلى زوجة رسول الله- ﷺ- الأثيرة لديه، وهو رسول الله- ﷺ- ولا يكون عنده ما يقوله أو يفعله سوى أن يصبر ويصبر ويصبر ويتحمل معه أهله ويتحمل معه المؤمنون كلّ تلك الضغوط النفسية الهائلة في مثل تلك البيئة، والمنافقون

يروحون ويجيئون ليروجوا لما افتروه ولما حاكوه من أكاذيب على أمّ المؤمنين، ثم ينزل القرآن المجيد بعد شهر من الانتظار ليقول : (إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ) (النور : ١١) إلى آخر الآيات، وإذا بهذه الآيات تجيب عن السؤال القائم، وتعالج الأزمة القائمة في تلك البيئة، وتعطي أحكامًا من طبيعتها العموم والشمول والإطلاق لكي تستفيد البشرية كلها بتلك التوجيهات حتى يوم القيامة، ولذلك، قال الأصوليون "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"، فالسبب نأخذه بنظر الاعتبار لكن العبرة الأساسية والهمّ الأساس هو بعموم اللّفظ ودلالات اللفظ نفسه، لتكون الحلول والمعالجات القرآنيَّة مطلقة، صالحة لكل زمان ومكان، عالميّة صالحة لكل مجتمع.

كذلك حينما حدثت قصة زيد بن حارثة يوم جاء إلى رسول الله- ﷺ- يريد أن يطلق زينب ورسول الله يؤمر من فوق سبع سموات يأمره الله- تبارك وتعالى- أن يتزوج زينب، وزيد بن حارثة كان يدعى زيد بن محمد فهو ابنه بالتبنِّي- ﷺ، وكانت "قضيَّة التبنَّي" عند العرب قضية كبيرة والمتبنى عندهم ابن لا يختلف عن أبنائهم من أصلابهم فليس من السهل قبول أو تحمل أو تمرير زواج الرجل بزوجة ابنه أو متبنّاه، وإذا بالقرآن الكريم ينزل إلى رسول الله- ﷺ- ليقول: (مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) (الأحزاب: ٤٠)، ثم يبيّن لنا قضية زيد وزينب بالتفصيل ويخاطب رسول الله- ﷺ- (مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءكُمْ أَبْنَاءكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ * ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ) (الأحزاب:٥).

ثم يخاطب رسول الله- ﷺ- ويقول له (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ) (الأحزاب : ٣٧)، فهذه نسميها مناسبات النزول، فجيل التلقي

لمشاهدته القرآن وهو ينزل على رسول الله- ﷺ، ولارتباط كثير من نجوم القرآن بقضايا كانوا يعايشونها، كانت قضية تعاملهم مع القرآن الكريم وفهمهم له قضية ميسَّرة لا يحتاجون فيها إلى مفسّر، أو مؤول، فلغة القرآن قريبة جدًا من لغتهم-مع إعجازها- والقرآن ونجومه تتنزل تباعًا وتتشابك مع بيئة الخطاب التي هي بيئتهم في عمليَّات التغيير الدائمة المستمرة، ولذلك كان ذلك الجيل، جيل التلقي، أفضل الأجيال وهو الجيل الذي استحق أن يوصف بأنّه جيل القرآن المجيد.

أما الجيل الثاني : فقد كان جيل الرواية والنقل، الجيل الثاني الذي هو جيل صغار الصحابة الذين كبروا بعد وفاة رسول الله- ﷺ- وكبار التابعين، هذا الجيل كان يسمىّ بجيل الرواية ؛ لإنه بدأ يلتقط كلّ ما تركه جيل التلقي، ويحاول استيعابه ونقله إلى الأجيال الأخرى، ولذلك نسميه بجيل الرواية، فازدهرت الرواية، في ذلك الجيل سواء الرواية المتعلقة بنقل القرآن المجيد وتعليمه للأجيال التالية أو نقل قراءاته وأحكام تجويده والصلاة به وما يتعلق بذلك، أو الأحاديث النبوية الشارحة سواء أكانت أحاديث قولية أو أحاديث فعلية أو أحاديث تقريرية، تلك الأحاديث الشارحة للقرآن المجيد، فأيضًا كانوا حديثي عهد بجيل التلقي فكانوا شديدي التعلق بالقرآن المجيد، وشديدي التعلق بقضاياه. صحيح أنهم لم يكونوا بمستوى جيل التلقي الذي كان الخطاب القرآني يشتبك مع بيئته لإحداث التغيير فيها بالطريقة التي أشرنا إليها، ولكن كان لهم من ذلك النصيب الكبير. ثم جاء الجيل الثالث، ألا وهو جيل الفقه، وفي هذا الجيل التفت علماء المسلمين إلى عمليات ضبط الحياة الإسلامية بضوابط التشريع، ومن أجل أن يفعلوا ذلك كان لابد من تأسيس الفقه، ولذلك أطلق عليهم "**جيل الفقه**"، والفقه كما لا يخفى هو "معرفة الأحكام الشرعية العملية المكتسبة من الأدلة التفصيلية" أي : من القرآن الكريم، ومن بيانه القولي والعملي والتقريري في السنة النبوية، هذا الجيل جيل الفقه، استطاع أن يغطي متطلبات الحياة، بفقه النص، فالمجتهد أو العالم من الأئمة المعروفين أمثال أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وسفيان والأوزاعي وسواهم، هؤلاء كلهم كانوا يقرأون النص، ولكن من

مدخل البحث عن الأحكام الشرعية، وهو مدخل سليم صحيح يفيد قارئه ما يتعلق بالأحكام. ولذلك رأينا أجيال الذين جاءوا بعد هؤلاء الأئمة الكبار يحاولون أن يحصوا ما سموه بآيات الأحكام ليمارسوا عمليات الاستدلال والاستنباط فيها. فبعضهم عدها ٥٠٠ آية وبعضهم ٣٠٠ و٣٤٠، أو أقل أو أكثر من ذلك بحسب قواعد كل مذهب من هذه المذاهب. ولكن مدخل الفهم أو مدخل الولوج إلى القرآن المجيد لديهم كان مدخل الأحكام ؛ أي : البحث عن حكم لمسألة من المسائل التي تعج بها الحياة، والبحث عن حكم شيء واستجلاء معاني القرآن بجملتها شيء آخر، لذلك كان في ذلك التحديد نوع من تجاوز مفهوم "الوحدة البنائية للقرآن المجيد" التي سنعمل إن شاء الله على تناولها وعلى توضيحها فيما يأتي من حلقات.

في عهد هذا الجيل، الذي تأسس الفقه في زمنه، وأقبل الناس على القرآن المجيد، وعلى ما يبينه ويوضحه من السنة من أجل استنباط الأحكام الفقهية، هذا المدخل مدخل البحث عن الأحكام في القرآن هو الذي ساد بعد ذلك بالنسبة للأجيال التي تلت هذا الجيل، ولذلك ساد نوع من الفهم–وهو فهم فيه نظر–بأن القرآن الكريم مصدر للتشريع أو مصدر أساس للتشريع وهذا صحيح بل هو مصدرٌ مُنشأ للتشريع، وهذا ربما يكون أدق وأن القرآن مصدر للعظة والعبرة من خلال قصصه وأمثاله، فحاول البعض أن يحصر أغراض القرآن الكريم في تلك الأغراض الثلاثة، فقالوا : القرآن الكريم يبيّن لنا العقيدة وعالم الغيب، ويبيّن لنا الأحكام الفقهية فيما يتعلق بشؤون الحياة، ويبيّن لنا في الوقت نفسه قصصًا وأمثالاً نأخذ منها العبر والدروس. ولعمري فإنّ القرآن المجيد أعظم من هذا وأوسع من هذه المحاور كلها. وإن شاء الله سوف نحاول أن نبيّن أمورًا أخرى إضافية جاءت بها فصائل أخرى من العلماء كالمفسرين والبلاغيّين وغيرهم ممن شغلوا بالقرآن المجيد لنضيفها إلى تلك المداخل أو المدخلين الأساسيين التي ذكرناهما ألا وهما مدخل قراءة القرآن للعبادة والتعبد وكسب الأجر والثواب، (ولا شك أن القرآن الكريم أعلى أنواع الذكر، وفي قراءته من الأجر والثواب ما لا يمكن أن يحصل عليه الإنسان في

قراءة غيره). والمدخل الثاني–كما ذكرنا–وهو مدخل جيل الفقه هو مدخل الأحكام الشرعية أو البحث عن الأحكام الشرعية.

ولنا لقاء إن شاء الله للبحث في المداخل الأخرى التي تيسر لنا بإذنه تعالى سبيل معرفة منهجية تدبّر القرآن.

فيما مر ذكرنا تقسيمًا لأجيال الأمة منذ عصر رسول الله ﷺ حتى عصر أئمة الفقه المجتهدين، وقلنا : إنَّها ثلاثة أجيال : جيل التلقي الذي عاصر رسول الله ﷺ، وجيل الرواية الذي تلى هذا العصر، ونقل ما ورثه من روايات سواء فيما يتعلق بنقل القرآن الكريم، ولغته، وما ذكره رسول الله من بيانه وتفسيره، وتطبيقات رسول الله لمحكم آياته. فرسول الله "كان خلقه القرآن[1]" وكانت عبادته تفسيرًا وتطبيقًا لما جاء في القرآن الكريم، وكذلك معاملاته وعلاقاته وسائر جوانب سيرته العطرة ﷺ. فنقل ذلك الجيل الثاني جيل الرواية كل ذلك لتطلع الأجيال الطالعة على تلك الروايات وتلم بما كان في حياة رسول الله وحياة كبار أصحابه، فكانت عملية الرواية وتناول المرويات والتفصيل فيها بمثابة المنهج، أو أنها كانت البديل عن "المنهج"، ولذلك كان جيل الرواية يستقصي كل أقوال وأفعال وأحوال رسول الله ﷺ فلم يكن يغادر صغيرة ولا كبيرة من حياة رسول الله ﷺ وما أثر عنه إلا نقلها ورواها، فذلك هو البديل عن المنهج في عملية حفظ المعرفة الموروثة، وعملية التهيئة لتناولها بالشكل المناسب.

أما "جيل الفقه" فقد حاول أن يغطي الحاجة الفقهية والتشريعية لكل ما استجد من قضايا، وأن يجيب على سائر الأسئلة التي كانت البيئة تطرحها وتثيرها، وتطلب أن تشمل بالأحكام الشرعية، وأوضحنا أنّ تتبُّع ذلك ودراسته، يرشدنا إلى مدخلين أساسيين من مداخل تدبّر القرآن الكريم ومقاربته.

المدخل التعبّدي أي : أن يقرأ القرآن تعبُّدًا، فيقرأ في الصلاة ويجرى تداوله وتناقله وإقراؤه وجمعه وروايته للتعبّد بتلاوته في الصلوات وخارجها. وذلك كله يمكننا أن ندرجه في "مدخل التعبُّد"، والمدخل الثاني : الذي برز في تلك الفترة هو "المدخل الفقهي

---

١ أخرجه أحمد ٦ / ١١٨

والتشريعي" أي : مدخل التدبُّر لمعرفة الأحكام التي جاء القرآن المجيد بها فالإمام من أئمة الفقه المجتهدين يأتي إلى القرآن الكريم باحثًا عن حكم لمسألة من المسائل المستجدة، أو للوصول إلى معرفة حكم فعل إنسانيّ مّا من الأفعال والمواقف في المسائل التي تثيرها البيئة الجديدة بكل ما طرأ عليها. ولكل من المدخلين مزاياه، وطرائق مقاربته للقرآن الكريم، وتدبُّره.

وهناك مداخل أخرى غير المدخلين المذكورين: ولا شك أن المدخل التعبدي والمدخل الفقهيّ لهما أهميَّتهما ويمكن للمتدربين أن يقاربوا القرآن بهما. لعل من أقرب المداخل إلى المدخل التشريعي هو "مدخل الأزمة" ومعالجتها، وكيفية التعامل مع الأزمات فالمجتمعات الإنسانيَّة لا تواجه أسئلة فقهية فحسب ؛ لإن الأسئلة الفقهية مهما بلغت إنما تشكل جانبًا ليس واسعًا أو كبيرًا من جوانب احتياجاتنا، بل هي جزءٌ له أهميته لكنه ليس كل شيء ؛ فهناك أزمات مختلفة، وكثيرة ؛ بعضها عقدي، وبعضها فكري معرفي "وحضاري"، واجتماعيّ واقتصاديّ وسياسيّ ؛ وبعضها قد يتعلق بقضايا العلاقات بين الأمم، وغير ذلك من أمور، وكلها لابد لنا من الوعي بها، ومحاولة مقاربتها، أو مقاربة القرآن بحثًا عن رؤية قرآنية فيها وحلول لها.

وقبل أن نبدأ بشرح وبيان "مدخل الأزمة" وأهميَّتة في التدبُّر أود أن أنبه إلى أن القرآن المجيد نزل على قلب رسول الله ﷺ، ونزول القرآن على القلب له معنى شديد الأهمية، إذ أنه يشير إلى أنّ العلاقة مع هذا القرآن ينبغي أن لا تبنى بطريق اللسان– وحده– وترديد الآيات والكلمات وإنما تبنى هذه العلاقة في إطار "الاستيعاب القلبي" وفهمها وحسب استقبال القلب لآيات الكتاب الحكيم يكون الإنفعال بالقرآن، فحين يقول تبارك وتعالى ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ *عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (الشعراء: ١٩٣– ١٩٤) وينص على أن النزول كان على القلب، ثم يقول تبارك وتعالى ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ* إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (القيامة : ١٦– ١٧)، فإنّ لذلك دلالات هامَّة فكلّنا يعلم أنّ الإنسان حين يريد أن يحفظ نصًا إنمَّا يلجأ إلى تكراره، وترديده بلسانه مرات عديدة لكي يبلغ درجة الحفظ له.

أما القرآن الكريم، فالأمر معه مغاير، ينزل أول ما ينزل على القلب أولاً مما يجعل حركة اللسان حركة تابعة لحركة القلب وبشاشته مع القرآن الكريم، وذلك يعني أن الإنسان الذي يريد أن يلج إلى رحاب القرآن متدبَّرًا لابد أن ينفعل قلبه به أولاً، ويخبت قلبه له، ويتهيّأ القلب قبل أيّ شيء آخر لاستقبال أنوار القرآن المجيد والتفاعل مع خطابه.

فإذا جئنا إلى مداخل القراءة المتدبَّرة بعد الانفعال القلبيّ واستعداده، لنعرف كيف يمكن أن يشتبك القرآن المجيد مع الواقع الذي نحياه حتى يقوم بتغييره ؛ فسوف نجد أنفسنا في حاجة إلى أن نجلس بين يدي القرآن ضارعين خاشعين متعلمين، فالقرآن الكريم بالنسبة لنا نبيٌّ مقيم، ورسولٌ دائم، تركه الله بين أيدينا، بعد أن رفع من أنزله عليه ﷺ إلى الرفيق الأعلى، ليكون هو النبيّ المقيم والرسول الدائم، فعلينا أن نتهيأ نفسيًا وعقليًّا وقلبيًّا حينما نأتي إلي عالمه الرحب الواسع، فهو للذين آمنوا هدى وشفاء، وهو على غيرهم عمى، فليست كل قراءة قراءة ولا كل تلاوة تلاوة، وإنما تتحقق التلاوة المطلوبة المتدبِّرة عندما نقارب القرآن من مداخله الأساسية، هي تلك القراءة التي يمكن أن توصف بأنها تلاوة للقرآن حق التلاوة، ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ﴾ (البقرة: ١٢١).

فكيف نتلوه من هذا المدخل الثالث : مدخل الأزمة ؟ لنأخذ على سبيل المثال، أزمة "الصراع العربي الصهيوني" الآن ونحاول مقاربتها بتدبرنا لما له علاقة بها من آيات الكتاب الحكيم. وخطوتنا الأولى في أن نحاول معرفة "المحددات المنهجية" التي نستطيع أن نستنبطها من القرآن الكريم ونحن نتعامل مع "الظاهرة الإسرائيلية والصهيونيّة" ما الذي نفعله ؟ لا شك أنها أزمة مستفحلة، مرّت عقود ونحن نعانيها، ونكابد منها وفيها، وتطرح علينا مختلف الاقتراحات، وتصدر مئات القرارات منّا ومنهم ومن مختلف المنظمات الدوليّة دون أن تزيد الأزمة إلا استفحالاً وتعقيدًا، فهل نستطيع أن نأتي بهذه الأزمة، ونصوغها سؤالاً نطرحه على القرآن المجيد؟!متدبّرين طالبين الجواب القرآني السديد ؟! الجواب الوجيز : نعم، ولكن كيف ؟ بعد خطواتنا الأولى لمعرفة "المحدّدات المنهجيّة" خاصة ما يتعلق بهذه الأزمة، لابد لنا من استقراء أبعاد

الأزمة في كليَّتها دون مغادرة أي جانب تفصيليّ ؛ ما علاقتها بالأرض ؟ ما علاقتها بالإنسان المسلم عامة والعربي الفلسطيني خاصة، ما علاقتها بالتاريخ وبالدين، بالثقافة، بالتقاليد، وبالموارد، وبالاقتصاد، وبالسياسة ؟ ما صلتها بالماضي، وبالمستقبل، كيف تنعكس على بيئة الأزمة المباشرة، وكيف تنعكس على البيئة الدوليّة ؟ ثم نحاول أن نعطي لكل بعد نصيبه في الأزمة.

فكل هذه المتغيّرات والمعطيات لابد أن توضع تفصيلاً، "بالنسبة للأمتين" اللتين تشكلان طرفي الصراع على طاولة البحث، لكي تصاغ "الأزمة" باعتبارها سؤالاً، نتوجه به إلى القرآن الكريم.

ونقدمه له وبين يديه. وهذا أمر لم يكن قائمًا في "جيل التلقي"، ففي "جيل التلقي" كانت الأزمات تحدث فتبرز الأزمة في واقع عصر التلقي، ثم ينزل القرآن الكريم بالحل، وبالجواب الشافي لها، أمّا بعد ذلك الجيل فإنّ القرآن قد تم واكتمل ولم يعد نجومًا يمكن تنزيلها على أسئلة البيئة، ولا يستطيع أحد أن يعيد تفريقه وتوزيعه نجومًا ليعيد تنزيله كما توهم البعض فإن رسول الله ﷺ وجبريل قد أمرا بأن يعيدا ترتيب القرآن نجومًا بعيدًا عن أسباب النزول ومناسبته التي كان يمكن ملاحظتها خلال اثنين وعشرين عامًا وخمسة أشهر واثنين وعشرين يومًا. كما لم يعد من الممكن تقسيمه إلى مكي ومدني وقراءته بهذه الطريقة، فهذا الأمر ينبغي أن نستبعده، فالقرآن بين أيدينا، كما تلاه جبريل ورسول الله قبل وفاته فيما عرف "بالعرضة الأخيرة" وهو كامل، ولا يمكن إعادة تفريقه بعد أن جمعه الله تعالى، (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ) (القيامة: ١٧) وقد قام تبارك وتعالى بجمعه وقراءته، فلا مفرّق له بعد ذلك، لذلك لابد لنا أن نصوغ إشكالياتنا وأزماتنا وأسئلتنا ثم نطرحها على القرآن الكريم في "كلّيته" وفي "وحدته البنائيَّة". ونطَّرح بين يديه ضارعين، مخبتين نُنزل آياته وسورّه بكلّيتها على قلوبنا وعقولنا، من أجل أن نحصل على جواب، وقد لا نحصل على هذا الجواب بقراءته مرة أو اثنين أو عشرة، وقد نحتاج إلى قراءته متدبِّرين أضعافًا مضاعفة حتى يرتبط القلب به، ويبدأ التفاعل معه، وإدراك معانيه، وتنزيل الأزمة عليه، والحصول على معالجته وجوابه عن تلك الأزمة المستفحلة، التي

صارت ليست بأزمة خاصة بطرفي الصراع، ولكنّها تحولت إلى أزمة عالمية، تهدد العالم بأسره، حيث تهدد أمنه، وتهدد استقراره، وتهدد كل شيء فيه.

فحينما نصوغ السؤال، بعد استعراض ما ذكرنا فيما يتعلق بالأمتين كليهما، ونضع ذلك كله، ونصوغ الإشكالية من خلاله ونعطي لكل متغيّر وكل معطى من المعطيات حقه وموقعه من هذه الأزمة، فسيختلف آنذاك الوضع الذي نحن فيه الآن، وسوف نجد أن هناك أمورًا كثيرة لابد من استيفائها واستكمالها لكي نصل إلى التصور المطلوب، لمعالجة هذه الأزمة.

سوف نجد أنفسنا أمام كمّ هائل من المعطيات ومن المتغيّرات التي يحاول الناس اليوم أن يختزلوها مرة إلى أنّ القضيَّة قضيَّة أرض، ومرة إلى مقررات ومرة إلى حق عودة أو حقوق لاجئين أو وعد إلهي أو ما أشبه ذلك مما نسمعه صباح مساء، دون جدوى، فكيف نستخرج بالتدبّر الحل القرآنيَّ لهذه الأزمة، إنَّ القرآن يملك أن يعطينا حلاً لا شك لو أحسنَّا تدبُّره ومقاربته، وعرفنا كيفية الولوج إلى رحابه لنستنطقه الحل في معالجة هذه الأزمة، مستخدمين كل المعطيات التي أشرنا إليها باستقراء تام غير ناقص، فالقرآن إذا استقرأ تاريخ هذا الشعب من بدايته حتى نهايته، وتتبع سيرته، وتصرفاته وعقليّته ونفسيته وسائر مركبات شخصيَّته، ومواقفه من كل شيء، وبيّن أفضل السبل لفهم تلك الشخصيَّة ومركباتها. ويبين كيف استقرت المعطيات التي تتعلق بهم والتي تتعلق بنا وبتاريخنا وبالدين وبمصادر الدين بالمصالح وبالعلاقات بالمستقبل وبالتاريخ والجغرافيا لهم، وفعل الشيء نفسه مع أمتنا مبيَّنا أهم خصائصها، وكيف استحقت أن تكون أمّة بديلة، وقواعد "المداولة" بين الأمتين، ومآل العلاقات والتحذير من الوقوع فيما وقع فيه اليهود إلى غير ذلك مما يجعل الباحثين المحلّلين قادرين على الخروج بتصورات كاملة بسيرورة التاريخ بالأميّين والخضوع لسنة "الاستبدال"، ليأتي المسلمون أمّة بديلة.

فإذا تّم تدبّر ذلك فإن القرآن يقدم لنا مؤشرات في غاية الأهمية فالقرآن الكريم يستعرض لنا في سورة البقرة من الآية ٣٩ إلى الآية ١٠٥ سيرة فيها كثير من التفاصيل

عن بني إسرائيل، ويأتي في سور أخرى من القرآن الكريم في مقدمتها سورة القصص وسورة الشعراء وسورة الإسراء وسورة الحشر وبعض السور الأخرى ليستكمل لنا صورة هذه الأمة، طبيعتها، نفسيتها، طرائقها في التفكير، طرائقها في التعامل مع الأنبياء، طرائقها في التعامل مع المرسلين، مع الأمم الأخرى، ماذا تفعل عندما تنتصر ؟ ماذا تفعل عندما تنهزم ؟ ماذا تفعل عندما تفتقر ؟ ماذا تفعل عندما تستغني ؟ كل ذلك نجده مفصلاً في غاية الدقة. لكننا كمل قلت نحتاج إلى توفير أمرين ؛ الأمر الأول : استقراء جميع المعطيات المتعلقة في الأمة المسلمة والشعب العربي بمثابة القلب منها، وفي بني إسرائيل أنفسهم، ثم بعد ذلك نستقرئ ما جاء في القرآن المجيد عن الأمتين، وطرائق تعاملهما وتاريخهما وغاياتهما، وأهدافهما، إلى غير ذلك، من أجل أن نصل إلى تصور ما يمكن أن يوصلنا القرآن المجيد إليه من معالجات لهذه الأزمة ونحن نتعامل مع هذه الظاهرة، وليبين لنا المقدمات والشروط والإجراءات والغايات وما سوى ذلك، ونتبين آنذاك أن أي إخلال في أمر من هذه الأمور سوف لن يؤدي إلى فهم الأزمة، ولن يؤدي إلى حسن معالجتها، بل سوف تستفحل الأزمة وتستمر.

إذن فعملية التدبّر هي عملية ليست بسيطة يكفي لبلوغها بعض التأملات ؛ بل هي في غاية التشعب، وتحتاج إلى قدرات وإمكانات ومراكز بحوث ينهض بها أذكى الأذكياء من أبناء الأمة لكي يصلوا إلى صياغة الإشكال ويقاربوا القرآن حسبه، ويتدبروا حلوله ومعالجاته.

لو جئنا إلى أزمة أخرى مثلاً أزمة الصراع في العالم، هل للقرآن كلمة في طرق معالجة ذلك لإنهاء الصراع ولتحقيق السلام العالمي، أستطيع أن أقول–بكل ثقة–نعم ؛ إن القرآن الكريم يمكن أن يعالج هذا، ويستطيع أن يقدم للبشرية شيئًا من "المحددّات المنهجيَّة" والمؤشرات التي تعينهم على التخلص من عوامل الصراع وتخفيض مصادره، أو لنقل تجفيف مصادر النزاع والصراع بينهم تمهيدًا لمناداتهم جميعًا إلى أن (ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَافَّةً) (البقرة : ٢٠٨).

كيف ؟ القرآن الكريم يؤكد للبشر–وهنا تبرز أهمية صفة "الكونيَّة" في القرآن الكريم–يؤكد للبشر أنهم أسرة واحدة ممتدة، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء) (النساء : ١)، إذن الأصل نفس واحدة، والأصل الثاني أسرة واحدة ممتدة، إذن فالبشر كلهم ينتمون إلى أسرة واحدة ممتدة، كلكم لآدم وآدم من تراب، تُرى لو ساد هذا الشعور لدى البشرية ووعت به، وأدركت أن اختلاف ألسنتها وألوانها، وأديانها ومذاهبها، وعروقها ومصالحها، والمواقع الجغرافية التي تعيش فيها، إنما هى اختلافات طفيفة تحدث في الأسرة الواحدة لا تجعل منهم أممًا مختلفة لإنها ما وجدت إلا لإعانتهم على التعارف، والتعارف يستدعي التآلف، والتآلف يستدعي بعد ذلك التعاون، لما وجد أيُّ أحد مبررًا لكي يقاتل أخاه، أو يشتبك مع أسرته، أو يحّول أبناء أسرته الواحدة الممتدة إلى أعداء، ولكن تناقض المصالح، وفقدان آليات احتواء الصراعات التي أرشد القرآن الكريم إلى الكثير منها. وغياب هذه النظرة الإنسانية المتوازنة التي أرسى القرآن المجيد دعائمها، هذه الأمور كلها لم تسمح للبشر أن يروا فيما بينهم إلا عوامل الاختلاف والتنافر لا عوامل الائتلاف والتآخي.

والبشرية اليوم تحاول جاهدة أن تجد أي مصدر "كونّي" يمكن أن يعينها على رأب الصدع، وقد ابتكرت الجامعات الأمريكية والغربية ما أطلقوا عليه "علم حل المنازعات" أو Conflict Resolution فلم يستطيعوا لحد الآن بالرغم من الآليات الكثيرة المقترحة أن يقدموا لنا ما قدمه القرآن الكريم في مؤشرات محدودة مشوقة جدًا، ومؤثِّرة جدًا، وقادرة على تهيئة النفس البشريَّة لاستقبال فكرة الانتماء إلى الأب الواحد والأسرة الممتدة الواحدة، وهذا الاعتقاد خطوة معجزة في تهيئة البشريّة لتحويل التعدد والتنوع إلى عوامل إيجابيَّة في معالجة أسباب الصراعات والمنازعات والحروب إضافة إلى الإيمان بوحدة الأرض بيتًا للإنسان، وموضع عبادة وطهور وأن موارد الأرض خلقت بمقادير ونظم دقيقة لتكون كافية للأسرة البشريّة الممتدة إذا سادت البشريّة القيم القرآنية.

وقد أكَّد القرآن المجيد أن الأرض كلّها بيت للإنسان ؛ الإنسان بمفهومه الشامل، يعني هذه الأسرة الممتدة (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً) (البقرة : ٢٩)،

(وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * آتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) (إبراهيم : ٣٣-٣٤)، استخلفكم في الأرض جميعًا بوصفكم نوعًا لا بوصفكم قبيلة أو شعبًا أو أمة مختارة. وأفكار الاصطفاء التي طرحت فيما مرّ من الزمن، واصطفى الله تبارك وتعالى بعض النبيين، واصطفى لهم أقوامهم، عمليات الاصطفاء هذه ليست مما يمكن أن يؤثر على هذه الوحدة ؛ ذلك لإن الاصطفاء-أيضًا-قد تمّ في إطار عملية التنوع وعملية تقديم القدوة والأسوة على مستوى البشر، كل في زمانه، وما كان للأمم التي اعتنقت أديانًا كبني إسرائيل الذين فضلوا على العالمين في وقتهم أن يتعالوا على البشرية بهذا، بل ليشكروا الله-تبارك وتعالى-أن فضلهم على عالمي أهل زمانهم، وأن لا يجعلوا من هذا التفضيل وسيلة استعلاء على عباد الله، ووسيلة استعلاء على بقية الأمم يمكن أن تثير صراعًا، بل هي وسيلة لتقديم القدوة والأسوة.

فحين نؤمن أن البشرية أسرة ممتدة، وأن الأرض كلّها بيت لهذا الإنسان لا ينبغي أن يلوثه أو يفسد فيه، أو يعيث فيه فسادًا، ولا ينبغي أن يسيء إليه، بل يحبه، ويستثمره، ويحرص عليه، ولا ينبغي أن يتوهم أنه امتلكه باصطفائه امتلاك استبداد، بل امتلاك منفعة فحسب لإنه مستخلف فيه، فسوف نجد أن هذا الإنسان إذا آمن أن الأرض كلها منزل له لا يمكن أن يجعل بعضها مدفنًا للنفايات المدمّرة، لإنه إفساد لها وفيها، ولا يتركها مواتًا ونهبًا للتصحر، ولعمليّات التلوث المختلفة، لإنها وديعة لديه كلها لا إقليمه وحده، ويدرك ويوقن أن الأرض كلها أرضه، وأرض أسرته الممتدة، ولذلك أعاد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه هذا المفهوم بشكل قوي، بناء على ما ورد في القرآن المجيد (هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) (هود : ٦١)، (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) (الأنبياء : ١٠٥)، (إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) (الأعراف : ١٢٨). ورسول الله-ﷺ-يقول : "جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا"[1] فنص على أن الأرض كلها مسجد ؛ له حرمة

[1] صحيح البخاري، كتاب الصلاة (٤٢٧)

المسجد، وله تقدير المسجد وطهارته، ومحبّته، وينبغي أن يحاط بهذا النوع من الشعور. والدعوات التي تنهض اليوم حول حماية البيئة وحماية الخضرة وغيرها، إنَّما هي دعوات تالية تعد ضعيفة جدًا بالنسبة لما كان رسول الله-ﷺ-يسعى لإرساء دعائمه في هذا الجانب في قلوب البشر وعقولهم.

إذًا : القرآن حينما نأتي إليه متدبِّرين يستجيب لنا-ونحن نحمل هذا النوع من الأزمات في قلوب البشر وعقولهم. أزمة البيئة، وأزمة الصراع، وغيرهما يعطينا مؤشرات-عند التدبُّر-نستطيع بحسن الاستفادة بها معالجة مشكلات وأزمات لا علاج لها بغير القرآن.

وقد يقول قائل : إذا كان القرآن الكريم يحمل هذه المؤشرات، ويدعونا إلى تبنّيها، فلِمَ قسم المسلمون الأرض إلى "دار حرب ودار إسلام ودار عهد" ؟، فأقول : إن هذه القسمة لم تكن قسمة قرآنية، ولم تكن قسمة نبوية، بل هي تقسيم فقهي للمعمورة جاء به الإمام محمد بن الحسن الشيباني (١٣١ هـ-١٨٩ هـ) وهو يحاول أن يبين لهارون الرشيد (١٤٩ هـ-١٩٣ هـ) رحمهما الله، مواقف الدول المعاصرة لدولة المسلمين آنذاك المواقف الذي ينبغي لدولة المسلمين أن تفقه منها بناء على ذلك، فقام بقسمتها وفقًا لذلك التصور، ليقدم للخليفة برنامجًا لرسم سياسات في مجال العلاقات الدولية يتبين من خلاله الدول المعادية، والدول التي يمكن أن تكون صديقة وأيّ البلدان يمكن أن يأمن جانبها، وما هي البلدان التي لا يستطيع أن يأمن جانبها.

ومع ذلك فإن كثيرًا من أئمتنا قد انتقدوا هذا التقسيم، فالقفال الشاشي لا رحمه الله وكثير من العلماء الذين جاؤوا بعده، قدّموا بدائل عن هذه القسمة لإدراكهم أنها قسمة آنية لاحظت فإذا أعطيت صفة الإطلاق صارت ظروفًا معيّنة مناقضة لموجّهات القرآن الكريم حول الأرض، ولتوجيهات رسول الله-صلى الله عليه وآله وسلم-في النظر إليها، ولذلك قالوا : لا ينبغي أن يقال : "الأرض دار حرب ودار إسلام ودار عهد" وهو ما أضافه الإمام الشافهي فيما بعد، بل يقال "دار إجابة ودار دعوة"، فدار الإجابة هي الدار التي يسكنها المسلمون أخذًا من قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ﴾ (آل

عمران : ١٧٢)، فتسمى دار استجابة، وهذا تعبير دقيق وتعبير صحيح ليس فيه اعتداء على أحد / وهو غير محمل بتحيزات معادية أو تحريضية وليس فيه تقليل من أهمية أحد آخر، وأما الدار الأخرى التي كان يسميها الشيباني "بدار الحرب" فقالوا ينبغي أن يطلق عليها "دار دعوة"، لإن مسؤولية المسلمين أن يُوصلوا هذا النور والخير الذي فيه إليها ويشركوها بنعمة القرآن والإيمان. فالأرض إذًا داران : "دار دعوة، ودار إجابة" وقال الشاشيّ : لا ينبغي أن يقال "أمة حرب"، فالأمة المسلمة يقال لها : "أمة إجابة" لقوله تعالى: (الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ)، و"أمة دعوة" للذين لايزالون على غير الإسلام، وهم أهل لأن يوصل الإسلام إليهم.

فهدي القرآن في هذا المجال، وتوجيه رسول الله-ﷺ-لا يتّسع لتلك القسمة التي بقي أثرها السلبيُّ للأسف الشديد عند الكثيرين من الفقهاء-الذين أخذوها على إطلاقها- ومازال أثرًا خطيرًا. والفخر الرازي عليه رحمة الله وقد توفي سنة (٦٠٦ هـ) كان يؤكد أنه ينبغي أن لا تسمى الأرض إلا بمثل ما ذهب الشاشيّ إليه بناءًا على قوله- ﷺ : "جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا" تفسيرًا لقوله تعالى : (هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) (هود : ٦١)، وأن البشر لا ينبغي أن يقسموا إلى تلك القسمة، بل يقسمون إلى "أمة إجابة" و"أمة دعوة" والله أعلم.

إذن هذه المنظمات الساعية لحل الخلافات، ولحل المشكلات بحاجة إلى مرجعية؛ تقدم لها المؤشرات الأساسية، وتعينها على رأب الصدع، والتخلص من آثار ومشكلات الدولة القومية والدولة القطرية، ففكر الأنثروبولوجيّين الذي سيطر على الكثيرين، وقسم الشعوب قسمة ظالمة إلى شعوب ملونة تعتبر أقل ذكاء من شعوب أخرى، وشعوب تعيش في مناطق باردة تتمتع بمزايا في كينونتها، وشعوب أخرى تعيش في مناطق حارة لا تتمتع بتلك المزايا، تلك القسمة كلها هي قسمة لا تخدم عمليات الائتلاف والتعاون بين البشر، بل تخدم عمليات التمزّق والصراع بينهم، واستعلاء بعضهم على بعض.

فالقرآن الكريم يقدم لنا العلاج، إذا ثورناه واستنطقناه، وتدبّرناه وتلوناه "حق التلاوة"، إنّ أزماتنا كثيرة، ومقاربة القرآن من "مدخل الأزمة" يحتاج إلى الفهم الشامل للقرآن

وللأزمات، ودراستها بمنتهى العناية، ومحاولة عرضها على القرآن الكريم من قبيل تنزيل السؤال الجزئيّ على المصدر الكليّ، ألا وهو القرآن الكريم، وليس كما كان الحال في عهد النبوة وجيل التلقي أن تفرز البيئة السؤال أو الإشكالية، ثم يأتي الوحي بالحل، أو بالإجابة عنها. بل نصوغ مشكلات عصورنا صياغات دقيقة، ثم نذهب بها إلى القرآن المجيد نستلهمه الحل والجواب.

وبذلك نكون قد عرضنا لحد الإن "مداخل ثلاثة" لمقاربة القرآن الكريم مقاربة تدبُّر: المدخل التعبديّ والمدخل التشريعيّ ومدخل الأزمة.

أما "المدخل الرابع" فهو "مدخل القيم" والذي نعنيه بمدخل القيم أننّا لو استقرأنا آيات الكتاب الحكيم كلها، وأخذناها من الفاتحة إلى سورة الناس، وقمنا بدراستها وتحليلها عدة مرات، محاولين حصر القيم العليا الحاكمة التي جاء القرآن المجيد من أجل إرساء دعائمها، فما الذي نجد؟ نجدها ثلاثة في حدود ما وصلنا إليه.

١. القيمة العليا الأولى هي "التوحيد" أي : الإيمان بوحدانية الله–تبارك وتعالى–في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، وتوحيده توحيد ألوهيَّة وتوحيد ربوبيّة وتوحيد صفات، وجلّ سور القرآن الكريم– ونستطيع أن نقول تقريبًا كل السور التي نزلت في مكة وجزء كبير مما نزل في المدينة المنورة–وجّه نحو هذه القيمة العليا ومحاولة إبرازها وإظهارها باعتبارها أهم ما نزل الوحي به، وجاء به المرسلون.

٢. القيمة الثانية هي قيمة "التزكية" أي تزكية الإنسان لنفسه والتحلي بالطهارة الشاملة، والتزكية قيمة عليا، وفي الوقت نفسه تعتبر التزكية أهم مؤهلات الإنسان للقيام بالوفاء بالعهد وبعملية الاستخلاف وأداء الأمانة، والنجاح في مهمة الابتلاء، فالإنسان الذي لم يقم بتزكية نفسه ولم يتحلَّ بصفة التزكية يفقد أهم المؤهلات التي تؤهله إلى أن يقوم بالوفاء بالعهد مع الله تبارك وتعالى (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ) (الأعراف : ١٧٢–١٧٣). أو أداء مهام

الاستخلاف على وجهها (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) (البقرة : ٣٠)، فالله–تبارك وتعالى–يعلم أن هذا الإنسان قابل بفطرته وخلقته على أن يقوم بعملية التزكية لنفسه أو التدسية لها والانحراف بها. والإنسان الذي لا يتحلى بالتزكية ولا يكتسب هذه الصفة، لا يصلح للوفاء بالأمانة (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) (الأحزاب : ٧٢)، والإنسان الذي لا يتحلى بالتزكية ولم يتمكن منها ولم يحقق تزكية نفسه، أو توقف عن القيام بذلك إنسان لا يمكن أن ينجح في مهمة الابتلاء (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) (الملك : ٢)، إذن فالوفاء بالعهد، والقيام بمهمة الاستخلاف والوفاء بالأمانة وأدائُها والقيام بها، والنجاح في اختبار الابتلاء، والقيام بعملية العمران التي سنأتي إليها، كل تلك الأمور تتوقف على أن يكون هذا الإنسان إنسانًا مزكّى ؛ يتحلى بالتزكية التامّة، تزكية النفس والقلب والبيئة والأسرة والخلق والبدن والمال وغير ذلك ؛ ولذلك حين يشير رسول الله في حديث شريف إلى أن "من أكل لقمة من حرام لا يرفع دعاؤه إلى الله تعالى أربعين يومًا"[١]، فتلك إشارة مهمة جدًا، لإن هذا الإنسان الذي سخّر الله الكون له، وكلّف بعمرانه إذا خان نفسه وأطعمها الحرام، فمن الصعب جدًا أن يرفع يديه إلى الله تبارك وتعالى بالدعاء، ويجد منه سبحانه وتعالى الاستجابة والقبول وقد أبى أن يستجيب لربه، وإذا خان نفسه وأطعمها الحرام فهو لغيرها أخون، كذلك وهناك حديث آخر صحيح جاء فيه "دخلت امرأة النار في هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض"[٢] ما الذي نستفيده من هذا الحديث ؟ البعض يقول: هذا من رعاية الإنسان للحيوان والرفق به، أن تدخل امرأة النار لإنها حبست قطة حتى ماتت وهو فهم قريب، وبعضهم قد يقول فيه شيئًا آخر، لكن ما يمكن أن يهدينا إليه النظر والتدبّر والتأمّل

---

١ رواه الديلمي في مسند الفردوس

٢ صحيح البخاري، ٣٣١٨

في أمر التزكية، أنّ هذه المرأة قد خانت "أمانة الاستخلاف"، خانت ما ائتمنها الله– تبارك وتعالى–عليه من خلقه ؛ فهي بانتمائها إلى النوع البشري المستخلف في هذه الأرض مسؤولة عن جميع المسخَّرات، ومنها الأرض وما فيها، وفيها هذه المخلوقات الضعيفة، فلها أن تستثمر هذه المسخرات، وتستفيد بها، وتحسن توظيفها وتضمها إلى قافلة التسبيح ؛ القافلة الكبرى التي تسبح بحمد الله– تبارك وتعالى، وبدلاً من أن تفعل المرأة المشار إليها ذلك خانت أمانتها فحبست هذا الحيوان المسكين، الذي كان عليها أن ترعاه، وكان عليها أن تحافظ عليه، فلم تفعل، لكنها حبستها وحرمتها الطعام والشراب حتى ماتت. في هذا الأمر نستطيع أن ندرك أثر التزكية في عملية العمران والمحافظة على الكون والمحافظة على البيئة، ولذلك ينبه البارئ –سبحانه وتعالى– إلى أن الأرض قد تكون هامدة وقد تكون ميتة، والإنسان مسئول عن إحيائها، وتهيئتها لما خلقت له. (وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ) (يس: ٣٣)، ما هو الإحياء ؟ الإحياء أن نعمرها، أن نزرعها، أن نستثمرها، نأخذ منها ما خلقت من أجله، لإن ذلك هو عبادتها لله– سبحانه وتعالى– وتعبيرها عن الخضوع له (وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ) (الرحمن : ٦)، سجود هذه الأشياء هو عبادتها وذلك أن نأخذ منها ما خلقت من أجله، ولذلك أمر سول الله–صلى الله عليه وآله وسلم–بإحياء ما عرفه الفقهاء "بإحياء الموات" أخذًا من القرآن الكريم أن الأرض حينما تهملها فلا تزرعها ولا تستثمرها، ولا تسكن فيها فإن ذلك يعد من الإفساد فيها، ومن الإماتة لها ومهمتك الإحياء لا الإماتة، ولذلك عقد الفقهاء أبوابًا أطلقوا عليها أبواب "إحياء الموات"، أي الأرض المهجورة المتروكة التي لا تستثمر، لإن مهمة الإنسان في هذه الحياة هي استثمار هذه المسخرات ؛ وأخذ أحسن ما خلقت له منها، وحمايتها من أجل أن تكون كافية للبشر، إحياؤها واجب أولئك الذين يستطيعون القيام بذلك. وأداء هذا النوع من المهام، وتلك تزكية للإنسان الذي يقوم بهذه المهام، الإنسان الذي يتحلى بصفة التزكية، وبصفة الطهارة هو الذي يصلح لهذه المهام. أما الإنسان الذي دسَّى

نفسه، وأهمل نفسه فهو لغيرها أكثر إهمالاً، ومثله لا يؤتمن على نفسه، فأنىّ له أن يؤتمن على الكون، أو يؤتمن على الأرض، أو يحقق العمران فيها ؟!!

٣. القيمة العليا الحاكمة الثالثة التي جاء القرآن الكريم بها، وعززها حتى صارت تمثل محورًا من أهم محاوره، أو من قيمه العليا الحاكمة هي العمران، وقد أشرت في إطار التزكية إلى بعض جوانب العمران، ولكن ما الذي نريده بالعمران ؟ العمران : هو بناء حضارة، ولكن ليس المراد مطلق حضارة بل بناء حضارة قائمة على قيم، تعزز القيم التي جاء القرآن المجيد بها، وتنبثق عنها، وأهمها القيمتان السابقتان "قيمة التوحيد وقيمة التزكية". فالحضارة مشروع عمرانيٌّ إلهيٌّ، استخلفنا الله–تبارك وتعالى– في هذه الأرض لتحقيقها، ولا يمكن أن نحققها إذا كنا متخلفين لا ندرك سنن الطبيعة، ولا كيفية التعامل معها، ولا ندرك ما في الكون، ولا كيفية التعامل معه، وإذا سخر أحد لك شيئًا كأن قدّم لك سيارة ووضعها على الباب وقال لك : هذه المفاتيح، وتصرّف فلم تتصرف ولم تقد السيارة ولم تتحرك بها، ولم تستخدمها، فماذا يعني ذلك ؟ يعني أنك أهملتها، أنك لم تستفد بها، ولم تدع غيرك يستفيد بها فلا قيمة لتسخيرها لك. فإذا كان الله–تبارك وتعالى–من ناحيته قد قام بعملية التسخير، وسخر لنا كل شيء من أجل إنجاز هذا المشروع ؛ مشروع العمران وبناء حضارة مصحوبة ومحكومة بالقيم التي تتغلغل فيها، ثم أهملنا ذلك كلّه فلم نبن حضارة ولم نحقق عمرانًا، فذلك يعني أننا أخللنا بالقيمة العليا الثالثة، ألا وهي "قيمة العمران" ولم نستطيع أن ندرك أن "العمران والحضارة مشروع إلهي" ما خلقنا إلا من أجله وأنه يمثل العبادة الإنسانية بأجلى معانيها فالعمران هوالعبادة الحقيقية للأمة العابدة والله–تبارك وتعالى–حين يقول (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) (الإسراء : ٤٤)، فيسبح له الشجر والحجر والماء والسماء والقمر والنجوم وسواها بالشكل التلقائي، أي أن الله سبحانه وتعالى قد سخرها لذلك، وجعل الإنسان سيدها، وهو المستفيد من عملية تسخيرها له، لإنه كلّف مع أمانة الاختيار، منحه الله تعالى القدرة على الاختيار وعلى الرد وعلى الفعل وعلى الترك، في حين لا تملك

المخلوقات الباقية المسخرة إلا أن تفعل ما خلقت من أجله إذا استثمرها الإنسان، فإذا لم يستثمر الإنسان الأرض ولم يُقم : العمران، ولم يحقق المشروع الإلهي بعمران الأرض، فذلك يعني أنّه قد خالف العهد بينه وبين الله، وخان الأمانة التي ائتمن عليها، ورسب في اختيار الابتلاء، وأخفق باستعمار الأرض التي أمره الله–تبارك وتعالى–أن يقوم به.

هذه القيم الثلاث : "التوحيد، والتزكية، والعمران" حينما ندخل إلى رحاب القرآن المجيد بعد استيعابها، وبعد فهمها متدبِّرين له فذلك يعني أننا سندخل مزودين بما يعيننا على بفهم ما نقرأ وعلى القدرة على تدبّر القرآن الكريم تدبرًا يجعلنا قادرين على الوصول إلى كثير من معانيه في حدود السقف المعرفي الذين نعيشه ونحياه، وفي حدود إمكاناتنا وقابليتنا وقوة تدبّرنا فنحن مهما نكن نبقي بشرًا نسبييِّن والقرآن المجيد كتاب مطلق وكتاب كونيٌّ.

وهنا نكون قد بينا أربعة مداخل، المدخل الأول هو المدخل الخاص بالعبادة ؛ أن نقرأ القرآن المجيد تعبّدًا، ونجمعه ونحفظه ونصلي به. المدخل الثاني هو مدخل التشريع يعني أن ندخل إلى رحاب القرآن نسأله، نوجه له سؤالاً شرعيًا، سؤالاً فقهيًا، لنحصل من القرآن على حكم ما نبحث عن حكمه. المدخل الثالث مدخل الأزمة وقد أشرنا إلى بعض المعالم الأساسية التي لابد لنا من محاولة فهمها، واستصحابها من أجل أن نصل إلى التصور المطلوب لمعالجة الأزمة، والوصول إلى حل فيها. ثم مدخل "القيم الحاكمة العليا" الثلاثة وهنا نصل إلى "المدخل الخامس" للتدبر، ثم المدخل الخامس وهو ما سمّيناه "بمدخل الوحدة البنائية للقرآن" يعني أن يدخل القارئ إلى رحاب القرآن المجيد وهو مؤمن بأنه داخل إلى كتاب هو بمثابة الجملة الواحدة، أو الكلمة الواحدة، وليس إلى كتاب مجزأ تمثل كل آية أو كلمة منه "وحدة مستقلة" عن الوحدات الأخرى وهذا أمر مهم في مجال التدبّر، فعلماؤنا–فيما مر–ناقشوا هذا الأمر كثيرًا، وهم يواجهون اعتراضات حول أسلوب القرآن المجيد، فالقرآن كما كان ومازال من لا خلاق لهم يعترضون عليه : أنه يذكر آية تتعلق بالدار الآخرة ويتلوها بآية أخرى تتعلق بالعبادة،

وبالدين جملة أو بقصة من قصص الأنبياء، أو بحديث عن قوم من الأقوام، أو مشهد من مشاهد القيامة، ولذلك توهّم بعض المستشرقين أن القرآن المجيد لا يتّصف بصفة الترابط بين آياته وسوره، فهذه الآيات الكريمة تتنوع تناولاتها وموضوعاتها تنوعًا شديدًا ؛ ذلك لإنهم لم يدركوا وحدة القرآن الكريم التي سميناها "بالوحدة البنائية".

وهذا الأمر قد ناقشه الجاحظ وغيره قديمًا وتلاهم–بعد ذلك–أبو عليّ الفارسي، وهو من علماء القرن الخامس الهجري ومن أئمة القراءآت والعربية، يقول وقد نوقش حول خبر لجملة بدأت "بلا النافية للجنس" زعم مناقشه : أنّه لم يكن موجودًا في السورة نفسها أي: "الخبر" فيرد أبو عليّ الفارسي على المعترض بقوله : "ألا تعلم أن القرآن الكريم كالكلمة الواحدة، وأن هذا الخبر قد ورد في سورة كذا، الآية كذا. وأن هذا الأمر غير مألوف في أساليب العرب، ولكن للقرآن المجيد لغته الخاصة، فهو في بنائه موحّد وكأنه جملة واحدة بل كلمة واحدة". وقد كتب أحد إخواننا كتابًا في القرآن المجيد سماه من الجملة إلى العالم[1]، فاعتبر الخطاب القرآني كأنه جملة واحدة موجهّة إلى العالم كله، وتخاطب العالم كله، وإن تعددت الأغراض، وتنوعت المحاور ؛ فتعدد المحاور وتنوع الأغراض لا يخلّ بهذه الوحدة التي نؤكد عليها، وهذه الوحدة وهي "الوحدة البنائية" تحتاج ليدركها الباحث إلى الكشف عن الروابط والعلاقات بين الآيات والسور، لا أعني المناسبات وحدها، فسيأتي الحديث عن المناسبات، لكني أعني أن هناك روابط متنوعة بين الآيات وداخل السورة وبين السور داخل القرآن المجيد، وهذه العلاقات والروابط المتنوعة والمتشعبة علاقات يمكن للباحث المرتّل المتدبر أن يكشف عن بعضها، ليدرك طبيعة العلاقات بين آية وأخرى، بين نجم قرآني وآخر، وقد تناول بعض العلماء بعض السور، لينبهوا إلى هذه الوحدة. وقد أبدع الدكتور محمد عبدالله دراز (ت : 1958 م) رحمه الله في كتابه " النبأ العظيم" حينما أخذ سورة البقرة على سبيل المثال مع اختلاف نجومها ومع تنوع موضوعاتها ومع طولها وتعدد آياتها، وكونها أطول سور القرآن المجيد، وأثبت أن هناك وحدة وترابطًا يقوم بين جميع الآيات في هذه السور، وقد قمت

[1] هو الدكتور وليد منير

بمحاولة مماثلة حول السورة نفسها من مدخل آخر في الموضوع الذي كتبته حول "الوحدة البنائية"، وهو موضوع قيد الطبع فيما يزيد عن ٥٠ صفحة حول هذا المدخل.

فحين ندخل القرآن المجيد أو ندخل إلى رحابه ونحن نضع في أذهاننا أننا ندخل إلى جملة واحدة كلمة واحدة، نجهد أنفسنا وعقولنا وأذهاننا في محاولة الكشف عن شبكة العلاقات والروابط القائمة بين الآيات داخل السورة، والسور داخل القرآن والكلمات داخل الآية نفسها، نستطيع أن ندرك أهمية النظر والتدبر في القرآن الكريم والنظر العقليّ فيه وتلاوته حق التلاوة، ونحن مستصحبون لهذا المدخل. ولذلك فنحن نحذر الباحثين في قضايا القرآن أن يدخلوا إليه بشكل انتقائي أو أن يقتحموا عالمه بموضوعات معينّة أو أن يحاولوا أن يقوموا بما تعارف عليه بعض الباحثين من تكشيف الآيات حسب موضوعاتها في الاقتصاد أو السياسة أو الشورى أو الجهاد أو نحو ذلك، فهذا الأمر غير مجد للباحث في هذا المجال، فالباحث لابد له من أن ينظر للقرآن في كليتّه وفي "وحدته البنائيّة" ويقوم بسياحته التدبّريّة في أركانه كلها.

ولقد أدرك بعض أئمتنا المتقدمين خطورة ما قام به جمهرة الفقهاء خاصة من محاولة تحديد آيات الأحكام برقم معين أو بعدد معين لإنهم أخضعوا الأمر لقواعد الأمر والنهي وما إلى ذلك، ليقولوا أن آيات الأحكام أربعين أو ثلاثمئة أو أقل أو خمسمئة أو غير ذلك من الأرقام، فقال الإمام الشافعي رحمه الله : "ألا وإن في الأمثال أحكامًا كثيرة" ومعروف أن كثيرًا من الفقهاء قد استنبطوا كثيرًا من أحكام الأسئلة الفقهية من قصص القرآن الكريم ومن أمثاله وما إليها، فعملية الدخول بتصور التجزئة إلى بنائية للقرآن الكريم ومحاولة الوصول إلى آيات تتعلق بشيء قد يكون الباحث حدده مسبقًا، هذا النوع من القراءة يحوّل القرآن إلى مجرّد شواهد يستشهد بها الباحثون لأمور كانوا قد وصلوا إليها أو قرروها خارجه، ومعظم ما ننتقده على بعض الأصوليين هو أنهم بدلاً من أن يأخذوا القرآن بكليّته أو "بوحدته البنائيّة" فإنهم اتخذوا من بعض آياته شواهد لما ذهبوا إليه، بدلاً من أن يصدروا عنها ابتداءً باعتبارها أدلة.

والقرآن كما نعلم ونقرر، وكما وصفه الباري تعالى "له الحكم"، أي هو المصدر المنشيء للأحكام، وليس المصدر الذي تنشأ الأحكام خارجه، ويطلب منه أن يرفضها أو يؤيدهاأو يكون شاهدًا عليها (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوْتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ) (آل عمران : ٢٣). من هنا أخذ بعض أهل العلم على بعض أئمة الأصول أنهم قد قالوا بالقياس قبل أن يعرفوا له دليلاً من القرآن الكريم، وحين جودلوا ونوقشوا فيما ذهبوا إليه من حجية القياس، ذهبوا يبحثون عن دليل في القرآن فوجدوا في سورة الحشر (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ) (الحشر : ٢) فاعتبروا يا أولي الأبصار فأخذوا هذا الجزء من الآية (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ)، وقالوا : إن القياس عبور من حكم الأصل إلى حكم الفرع، فإذًا نحن مأمورون بالقياس بمقتضى هذه الآية وبعض الأئمة قبله ووجد فيه تكثيرًا لما يستفاد من ألفاظ القرآن في أوضاعها المختلفة، وبعضهم رفضه واستبعده، الاستدلال بهذه الطريقة على هذا الأمر يعتبر استدلالاً ضعيفًا ليس له ما يؤيده وليس له ما يعضده، ولذلك انتقد عليهم. وقد نسب إلى الإمام الشافعي–رحمه الله–أنّه بعد أن قرر "حجية الإجماع" نوقش في الأمر وطولب بإيراد دليل على هذه الحجية، ويروى عنه أنه قد قرأ القرآن المجيد مرات ثلاثة بحثًا عن حجة يُسند بها قوله بحجية الإجماع، فكان أن قرأ قول الله تعالى : (وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا) (النساء : ١١٥)، قال : إذن فالإجماع سبيل المؤمنين ومخالف الإجماع مشاق للمؤمنين مخالف لسبيلهم، متخذ لسواه، وبالتالي فإنّ الوعيد المذكور بالآية الكريمة (وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا) (النساء : ١١٥) يتناول منكر "حجيَّة الإجماع". وقد أخذ على الإمام هذا لإن فيه تكلفًا، ولإن فيه دلالة على أن الإمام قد قال بالحجيّة قبل أن يذهب إلى القرآن الكريم ويبحث فيه عما يمكن أن يكون قد

تعرّض له فيما يتعلق بهذا المجال ؛ مجال القول بإجماع الأمة، وحجيّة هذا الإجماع، بدلاً من أن يقول بالحجيّة، ثم يبحث عن الدليل. ولذلك كان في ذلك الاستدلال مجال للنظر. وقد كتب بعض الباحثين دراسات جيدة حول اتخاذ الأصوليين أو جمهرتهم لآيات الكتاب الكريم ولسنن المصطفى–صلى الله عليه وآله وسلم–اتخذوها شواهد بدلاً من أن يتخذوا القرآن مصدرًا منشأً، ويتخذوا من السنة النبوية مصدرًا مبينًا لذلك.

ولذلك فإن ملاحظة "وحدة القرآن البنائية" في ميدان التدبَّر سوف تكون مدخلاً لا غنى عنه لمن يريد تدبّر القرآن فبهذا المدخل نقرأ القرآن في كليته، وهذا المدخل على صعوبته لكن فوائده عند التجربة لا تنحصر. فقد يقتضي هذا المدخل أن نقرأ القرآن مرات عديدة من أجل أن نصل إلى إدراك يعيننا على تقديم رؤية قرآنية في مسألة من المسائل، وهناك فوائد لا تحصى يجنيها المتدبَّر وهو يمارس التدبّر بهذا المدخل فلا ينبغي لأحد أن يأتي إلى القرآن محمَّلاً بآراء وأفكار وحلول، ليبحث فيه عما يعضِّد ما ذهب إليه، وما تبناه.

٤. المدخل السادس : "عمود السورة ووحدة القرآن الكريم" أو "مدخل الوحدة البنائية" يأخذنا المتدبّر وهو يمارس التدبّر بهذا المدخل عندما نتعامل مع سورة من سور القرآن إلى مدخل الإنطلاق من "وحدة السورة"، والسورة لها "وحدتها البنائية الخاصة بها"، ضمن الوحدة البنائية للقرآن المجيد فإدراك الوحدة البنائية للسورة، والكشف عن معانيها، وإبراز وحدتها، يقتضي منا أن نلج رحابها ونحن مؤمنون بوحدتها، وإيماننا بوحدتها يجعلنا نبحث عن "عمودها الأساس" فلكل سورة عمود لإن السورة بمثابة بيت كبير، له دعامة أساسية يقوم عليها تحيط بهذه الدعامة الأساسية دعامات أو أوتاد فرعية تحيط بهذا العمود الأساس. فالباحث إذا دخل إلى رحاب سورة من سور القرآن الكريم وهو مؤمن بوحدتها، مدرك أنها تحمل عمودًا، أو أن هناك عمودًا يحملها، ففي هذه الحالة سوف يدرك معاني السورة جملة بالكشف عن ذلك العمود.

والكشف عن عمود السورة يوجد ألفة بين المتدبر وبينها، لإنه حين يكتشف عمودها الأساس ويكون قد كشف عن محورها وموضوعها الأهم، والموضوعات الفرعية التي

تحيط بذلك العمود ؛ ودورها في إسناده، ودورها في توضيحه، وإعطاء القارئ الباحث المتدبّر من كرم القرآن الكريم ما يمكن له أن يستوعبه. فعمود السورة في هذه الحالة سيكون عونًا للباحث ومرشدًا له للوصول إلى أهم معانيه، وقد كتب في ذلك الإصلاحي من علماء الهند– رحمه الله– ونبه إلى ذلك الشيخ أمين الخولي–رحمه الله–كما نبه المتقدمون إلى ذلك وفي مقدمتهم علماء البلاغة والنحو، وقليل من المفسرين الذين تنبهوا إلى هذا الأمر واهتموا به الاهتمام المناسب.

٥. هناك مدخل آخر يجدر بنا أن نتعرض له في هذا المجال وهو قريب مما ذكرنا في مدخل السورة، والكشف عن عمودها وعن الأوتاد المحيطة بهذا العمود، وهو ما يعرف بمدخل التصنيف الموضوعي، فنحن حين نبتدر القرآن الكريم ونجيل أفكارنا في الموضوعات التفصيلية التي تناولها ونمرن أنفسنا على تحديد موضوعات مثل "الإيمان والكفر والشرك والنفاق والحق والباطل والصلاة والعلم والإصلاح والإفساد" وما إليها ... ثم نبدأ بقراءة القرآن كله دون الاقتصار على قراءة الآيات التي وردت هذه الكلمات المفتاحية فيها، وبعد القراءة الشاملة المتدبَّرة نرصد ونحن نقرأ القرآن في كليتّه تلك الآيات التي وردت فيها هذه الموضوعات، ونقوم باستقراءها وتتبعها ومعرفة ما سبق ذكر تلك الآية التي تعتبر نصًا في الموضوع وما لحقها وما يمكن أن يعطينا ذلك من إضافات ومؤشرات تساعدنا على فهم الموضوع في كليته دون الوقوع في عملية التجزئة، ودون السقوط فيما سقط به بعض أولئك الذين تتبعوا آيات معينة واقتطعوها من سياقها فتخبطوا في عملية فهمها أو الوصول إلى معانيها، فإذا قمنا بذلك وجمعنا ما يتعلق بموضوعات "الإيمان أو الكفر أو النفاق" أو أي مفتاح أو مفهوم نبحث عنه، فليس لنا أن نتوقف عن التأمل والتدبّر في القرآن الكريم في كليته وتدبر الآيات الواردة في الموضوع في إطار وحدته، وبالتأمل فيها سوف نجد أنفسنا– آنذاك– مشدودين شئنا أم أبينا إلى إعادة النظر المستمر في القرآن الكريم ؛ في كليته ووحدته مرارًا، وعدم الوقوف عند تلك الموضوعات، وأحيانًا سوف نجد ما

يعزز ما سبق لنا أن تناولناه من القول "بالوحدة البنائية، ووحدة السورة"، وغير ذلك من المداخل.

ومما يستأنس به أن الإمام الشافعي–رحمه الله–قد جمع له البيهقي ما سماه بأحكام القرآن وجاء بعدد من الآيات محدد هي التي اعتبرها الآيات التي استند الإمام الشافعي عليها في بناء أصوله وبناء فقهه. وعند التحقيق نجد الإمام الشافعي ينهى عن الاقتصار على ذلك العدد من الآيات، وينصح المجتهد بضرورة قراءة القرآن كله، فالأمثال فيها أحكام كثيرة وكذلك القصص كما تقدم فيها أحكام كثيرة، ولذلك فإننا لا نستطيع أن نستنبط الحكم بالدقة المطلوبة، وأن نحيطه بالاجتهاد اللازم الذي نسميه "بذل الفقيه الوسع حتى يعجز عن بذل المزيد" بدون أن نرجع إلى القرآن المجيد في كليتّه، ووحدتّه، دون إخراج الآيات من سياقها بحجة الموضوع.

٦. مدخل مكمّل هو مدخل البحث في "المناسبات"، وقد يقول قائل : وما الفرق بين ما ذكرته سابقًا من القول بوجود علاقات وروابط وبين المناسبات ؟ وأقول إن العلماء المتقدمين قد فرقوا كثيرًا بين المناسبات وبين الروابط والعلاقات التي نكتشفها مستعينين بآليات النحو وقواعده وما إلى ذلك، فالقاضي ابن العربي يقول : "علم المناسبات وارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم"، ويشير ابن العربي نفسه إلى أنّ هذا العلم لجلالة قدره وأهميته ولدقته وحاجته إلى الكثير من الجهد مع توفيق الله تبارك وتعالى قد تحاشاه كثير من العلماء، ولم يدخلوا فيه وبعضهم دخل في بداياته ثم توقف"، ويقول الإمام الرازي: "من تأمل لطائف نظم السور وبديع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضًا معجز بسبب تريبه ونظم آياته" ويقول : "أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"، ويقول برهان الدين البقاعي وهو من أشهر من كتب في هذا وأعد تفسيرًا كاملاً مطبوعًا في مجلدات ثمان في هذا الأمر، هو (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، يقول : "إنّ السورة وإن تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلق آخره بأوله وأوله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد كما تتعلق الجمل

بعضها ببعض في القضية الواحدة، ولا غنى لمتفهم لنظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية الواحدة"، ويريد بذلك "القضية المنطقية" التي هي عبارة عن جملة واحدة.

فإذا عمدنا إلى القراءة المتدبرة، بهذا المدخل مدخل المناسبات والبحث فيها وإدراكها، فإن من الممكن أن نأخذ سورة من تلك السور التي تعددت نجومها وتنوعت موضوعاتها وكثرت معانيها، ثم نتلوها بتدبر آية بعد آية، ومجموعة بعد أخرى، ونجمًا بعد آخر، ثم نتفكر في بدايتها ومسيرتها وانسيابها حتى نصل إلى خاتمتها، ثم نعود من الخاتمة إلى البداية، وننظر في العلاقات بين اسمها وتسويرها، لتكون سورة مستقلة، ثم علاقاتها بما قبلها وبما بعدها، وسنكتشف شبكة من العلاقات بينها، تجعلنا نشعر أنها نزلت حين نزلت وكأنها نجم واحد أو كأنها نزلت مرة واحدة.

٧. هناك مداخل أخرى كثيرة جدًا، منها مدخل "عالم الغيب وعالم الشهادة"، أي أن يستحضر المتدبِّر وهو داخل إلى رحاب القرآن هذين العالمين، وينظر في الآيات الكريمة متدبرًا مع حضور هذا المدخل في ذهنه فسيجد أنّه يستطيع أن يقول هذه المجموعة من الآيات تتعلق بعالم الغيب، وهذه تتعلق بعالم الشهادة، أو كما ذهب بعض المتقدمين إلى "عالم الأمر وعالم الإرادة وعالم الخلق"، فهذه عوالم ثلاثة يستطيع القارئ أن يستصحبها وأن يدخل إلى رحاب القرآن متدبرًا وهي حاضرة في ذهنه.

هناك مدخل آخر يمكن أن نشير إليه، وهو مدخل العلاقة بين الله تبارك وتعالى إلهًا وربًا وخالقًا وبين الإنسان مخلوقًا ومستخلفًا، وبين الكون مخلوقًا ومسخّرًا، ومحاولة معرفة الآيات في إطار هذه المداخل فستبدو للمتبدبر آيات تتعلق بعالم الأمر، وأخرى تتعلق بعالم الإرادة، وثالثة تتعلق بعالم الخلق، إلى غير ذلك، فهذه النماذج من مداخل للتدبُّر تحتاج أيُها التالي للقرآن استصحابها كلما اقتربت من عالم القرآن الكريم، وازددت قراءة متدبّرة له ولعل الله يفتح عليك فتتكشف من المداخل ما يعين على حسن التدبّر وحسن القراءة، وتثوير القرآن المكنون، والوصول إلى بعض ما يكنّه في آياته.

فإن القرآن المجيد كلام الله- تعالى- والكون تعبير بكل شيء فيه عن كلمات الله : " إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ".